(هذا زمن نحن فيه كالسمك
يأكل كباره الصغار ....)

كان رجل يحنى ظهره الضعف والهرم يقطع الطريق بين مستشفى المنصورة النائى وبين تفتيش الصحة الواقع فى الطرف الآخر من المدينة ، يقطعه مضطربا مهرولا بمقدار ماتسمح له الشيخوخة الكليلة ، ويهذى وهو سائر بجمل والفاظ لامعنى لها ، وترتعد اوصاله بلا ضابط وتشخص عيناه الحمراوان فى الفضاء ، وقد بدا من تشوش ملابسه النظيفة انه ارتداها على عجل وهو لايدرى مايصنع

كان فى الواقع اشبه مايكون بمجنون ولا ادرى كيف كان يستطيع ان يتجنب اخطار الطريق ...

وكنت جالسا فى احد مقاهى الكرنيش الاخضر الجميل الذى يزين اعطاف النيل عند المنصورة ويؤلف الاعتراف الوحيد بما ينبغى من تكريم لهذا النهر المنعم الوهاب منذ ان يبرح القناطر الخيرية الى ان يصل الى دمياط .

اخذ الرجل يذهب ويجىء ، ولا تبدو عليه فى كل مرة اية لمحة من لمحات المكروب الذى يتاح له باب للفرج من الكرب والضيق

وبعد ان رأيته فى ساعتين اربع مرات اخذت اترقبه فى الخامسة حتى اذا اقبل اعترضته فى الطريق ، وقلت له : « يا عم :

ان الثورة لا تحل مشكلا ، والحزن لا يدفع بلاء ، وخير لك ان تهدأ فان الهدوء خليق ان يجلو الفكر ويبدد الحيرة والظلام »

وخيل لى من اليسر الذى تقبل به دعوتى اياه للجلوس ، بعد نظرة طويلة صامتة احتوانى بها ، انه كان فى امس الحاجة الى شخص ، أى شخص ، يكلمه ، ويبثه حزنه ، ويفضى اليه بما آده من هموم ؛ فاندفع يتحدث الى بلا مقدمات ، ويداه تختلجان على مقبض عصاه اختلاج عصب محطم

— « ابنى ... ابنى الوحيد اخذوه منى ! »

قلت : « من الذى اخذه .. الجيش ؟ »

قال : « ياليت ! فانه مازال فى الخامسة عشرة ، لقد اخذوه الى مستشفى المجاذيب ! »

واسند الرجل جبينه على يديه فوق العصا وراح ينشج نشيج الاطفال

قلت : « لعله مريض ؟ »

قال : « لا شىء به الا انه اخرس وقد ولد كذلك ، وهو اعقل منى ومنك — لا تؤاخذنى يابنى — واشد وداعة من الحمل ، واسلم طوية من طفل رضيع . . »

قلت : « ولكنى لا اعلم انهم يصطادون العقلاء من الطريق ليدخلوهم مستشفى المجاذيب . » فصاح بى : « انهم يفعلون الآن . . . »

وعاد الى بكائه لحظات ثم استأنف يقول :

— « اسكن فى بيت تاجر من ذوى المال والنفوذ ، وقد بدا له منذ نشبت الحرب وارتفعت اجور المساكن ان يخرجنى من مسكنى غصبا ليتاجر به فى سوق المساكن السوداء ، فاخذ تارة يقطع الماء عنى ، أو يأمر البواب ان يتحرش بولدى ، او يأمر اولاده ان يسخروا من آفة لاخرس المسكين ، او يغرى خدمه به ، أو بى ، او بشرفة البيت يلقون فيها اقذارهم كلما وجدوا بها ثيابا منشورة ، اوضيوفا جالسين

« وضقت بالبيت وصاحبه ذرعا ، ولكننى لم اجد بيتا سواه فأقمت على مضض ولا حيلة لى فى دفع هذا البلاء »

« ولما أيس المالك ابلغ البوليس عن ابنى انه مجنون ، وان فى وجوده خطرا عليه وعلى اهله وولده وعلى سائر السكان .. »

قلت : « ولكن البوليس لا يفعل شيئا فى مثل هذه الامور الا ان يحيل المشكو منه الى الطبيب ، وما اظن بينك وبين الطبيب عداوة ، وما احسب ان تبلغ القسوة بطبيب ان يقحم عاقلا على مستشفى المجاذيب ؟ »

وعض الرجل شفته حتى كاد يدميها وقال :

« ياسيدى لقد ذهبت الى الطبيب وعندى له مثل الذى عندك من تقدير واكثر ، فسألته عما قرر ان يفعل ؟ قال : احيل ابنك الى المستشفى ، وهو وحظه هناك ! .. قلت : ولكنه ليس مجنونا ولا يعدو الامر ان يكون نكاية من عدو مغيظ . قال : ليس هذا من شأنى وليس على الا ان احيله الى المستشفى ، وهناك يفصلون فى امره اعاقل هو أو مجنون ! » ..

قلت : ــ كان البوليس يستطيع ان يفعل ذلك دون حاجة اليك ، وقد نصبك القانون حكما بين الجمهور والبوليس . قال : ــ اذهب فاشتك ان شئت ! قلت : انما جئت شاكيا اليك فأعنى على الظالمين . قال : وهو غاضب : انى لست قاضيا ، انى هنا قنطرة ! . ثم تركنى وانصرف لغيرى من ذوى الحاجات . »

واخذ الرجل بعد ان فرغ من حكايته يبكى ويلطم خديه ، ويسائلنى ويسائل من انضم الينا من الفضوليين : « الى من اذهب الآن ، وقد بات حماتى وقضاتى انفسهم فى صف اللصوص ؟ »

واخذنا نهون عليه مابه ، ورحت احدثه عن المستشفى ، وان بها اطباء مختصين ، يميزون بين العاقل والمجنون ، وان ابنه لابد عائد اليه فى ايام ، ولكن الرجل استمر يلطم وينوح ويصيح : « ان ابنى ان دخل هذا المستشفى فلن يخرج منه ولئن خرج ليخرجن مجنونا ، فمن عاشر الحداد فلا بد ان يكتوى بالنار .. وان اطباءهم انفسهم من طول ماعاشروا المجانين قد اصبحوا مجانين ! ! »

وتدخل شخص معمم من بين النظارة يبدو عليه انه فلاح متعلم، فقال له : « نحن ياعم فى هذا الزمن كالسمك يأكل كباره الصغار ، ويلتهم الاقوياء فيه الضعفاء ، وليس للقوانين والشرائع على هذه الموائد من شأن الا مايكون من الشأن للملعقة والسكين بين الآكل والمأكول .. فهلا تركت المسكن لصاحبه . واقفلت على نفسك هذا الباب الذى تعصف عليك منه الريح ؟ »

وانتفض الرجل انتفاضة الغريق الذى يجد فى اخر لحظة وسيلة للنجاة ، واشرق فى عينيه ضوء جديد ، وتركنا بغتة واخذ يركض وقد نسى عصاه ..

وركضت من ورائه اسلمه العصا ، فلم الحق به وحافظ رغم السن والضعف على مابينى وبينه من بعد ، وظل يركض ولا يكل ، وانا الهث من التعب حتى أتى « سوق الخواجات » ووجدته وهو يقبل قدم صاحب المتجر هناك ، ويستغفره ، ويتوب اليه ، وصاحب المتجر — وكانت تبدو عليه كل مظاهر الداخل الجديد فى دنيا الثراء — سعيد باذلال خصمه ، ناظر الى من حوله من صغار موظفيه نظرات الزهو والتباهى والغرور

فلما شبع من زهوه ، انعم على الرجل بابتسامة ، وقال له من طرف لسانه : « اذن فقد آمنت ان الله حق . ؟ »

قال : « واشهد ان لا اله الا هو ، هو نعم المولى ونعم النصير »

وبعد محادثتين قصيرتين بالتليفون طلب التاجر من الرجل ان يذهب الى مركز البوليس ليسترد ولده ، وعاد العبد الى تقبيل قدمى السيد من جديد

واسلمت للرجل عصاه ، وسألته وانا أسير معه : « ولكن أين ستسكن الآن ؟ »

قال : « فى اى مكان ولو على قارعة الطريق ، وحسبى انى استرددت ولدى والله لا ينسى احدا من عباده ، وعلى كل حال فلدى مهلة عشرة أيام ! »

obeikandi.com